Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل نموذجاً من روايات تلك الحقبة يُقدَّمُ تأكيداً لكل هذه التوجهات . فرواية جيل بلاس G. Blas (١٧١٥ ـ ١٧٣٥) تُصَوِّر بطلها في مختلف مراحل الحياة وفي كل معارج الحياة الاجتماعية المعروفة عهد ذاك . إنها تقدمه للقارىء ولداً يقع ضحية عشرة السوء ليصبح سارقاً لكنه ينتهي رجلاً ثرياً ذا عائلة وأملاك وسمعة طيبة[٦] . أو ليست ، بالتالي ، نموذجاً يسعى إلى التحول بالجماعات « الوضيعة » إلى مستوى أفضل يُجسد طموحها ويعبر عن رغبتها في التجربة الاجتماعية ؟ إنها ، كما يبدو ، مرحلة الرواية التي تعتمد الواقعية وسيلة للإرشاد والتوجيه والتنوير الاجتماعي .

من هنا ، يمكن للمرء ملاحظة أن هذا التحوُّل في الفعل الروائي ، أو انتقاله من دنيا الشكلية الشعرية والمادة الخرافية أو غير الواقعية إلى عالم النثر والمادة الواقعية البحتة لم يكن نتيجة تصرف فردي لكاتبه أو قارئه . لقد كان عملاً شكّل بصدق استجابة واضحة لعقلية /إيديولوجيا نزعت في عصر تحطمت فيه قيم اجتماعية وسياسية وطبقات معينة من الناس ، لتبرز قيم وطبقات وجماعات استطاعت أن تكسب حق التعبير عن حاجاتها إلى نوع أدبي معين . ومن ثم فقد استطاعت أن تحقق هذه الحاجات ، فكانت « الرواية » مجال استجابة واضحة لتطلعاتها .

يمكن ، بالتالي ، قبول التحليل القائل إن الرواية ، التي ظهرت بذور شكلها في القرن الثامن عشر في أوروبا ، كانت ردة فعلٍ ضد مبدأ العبقرية النخبويّة ، وكانت إرهاصاً قوياً لشكل أدبي ناضج لفن شعبي يُفْتَرضُ به ، لغلبة العنصر الإخباري والتقريري فيه ، أن يكون شبه أدبي . ويجب ، في هذا المجال ، أن يُفَرّق المرء بوضوح بين هذا الفن وبين الأدب بمفهومه « السامي » التقليدي : الأدب الذي يعتمد على نخبة محدودة من المتعلمين وبين فن أدبي يعتمد على جماهير غير مثقفة[٧] .

إن النظريات الأولى للفن الروائي المعاصر مالت في القرن الثامن عشر إلى الاهتمام بالمغزى الأخلاقي الواقعي للفعل الروائي . وفي هذا الصدد يمكن لبعض آراء الدكتور جونسون أن تكون بين خير ما يمثل هذا التوجه .